المحاضرة 8- **شعر الزهد والتصوّف**

1. **الزُّهْدُ:**1- لغة:الزُّهد والزَّهَادة في الدّنيا ولا يُقال الزّهد إلّا في الدّين خاصة، والزُّهد ضد الرغبة والحرص على الدّنيا، والزهادة في الأشياء كلّها :ضدّ الرغبة.

**زَ**هِد وزَهَد،يَزْهَد فيهما زُهْدا وزَهَدًا،بالفتح عن سيبويه والتّزهيد في الشيء وعن الشيء: خلاف الترغيب فيه وزَهَّده في الأمر: رغَّبَه عنه.

الصّحاح: يقال زهد في الشيء وعن الشيء،وفلان يتزهّد أي يتعبّد،وقوله تعالى :" وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ "، والمزهد :القليل المال ،وفي حديث النبي (ص) :"أفْضَلُ النَّاسِ مُؤمِنٌ مُزهِدٌ"

المزهد:القليل الشيء؛ وإنّما سميّ مُزهدا لأنّ ما عنده عن قلّته يُزْهد فيه،وشيء زهيد :قليل.

1. **اصطلاحا**:

هو التخلّي عن متاع الدّنيا والتفرغ للعبادة وانطلاقا من هذه المبادئ ظهرت حركة دينية تضمّ مجموعة مِن الوعّاظ والنّسّاك الذين رفضوا الدنيا وزينتها وكانوا يقيمون حلقات في المساجد وفيها يُذكِّرون الناس بفناء الدنيا وخلود الآخرة ويدعونهم للتمسّك بحبل اللّه وطاعته ،فالزهد هو أن نترك الدنيا طلبا للتقرّب للمولى عزّ وجلّ ،أن نتخلّى عن ملذّاتها لتمكين الروح من العودة إلى مصدرها الأوّل والاستئناس بخالقها.

**2/ أصول الزهد:**

رغم أنّ حركة الزهد ظهرت بعد فترة الإسلام، إلّا أنّ ما ركزت عليه وما تدعو إليه من معان ،كان موجودا في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، فقد كانت المعاني الأساسية للقصيدة الرثائية في الشعر الجاهلي تدور حول تفجّع الراثي وحُزنه،وكذلك تبيان خصال الميّت ومناقبه،إلّا أنها كانت تتخذ إلى جانب ذلك سياقا مُناسبا للحديث عن صُروف الدهر وتقلّبات الزمان،فيقف الشاعر وَقْفَةَ تَأمُّل في منزلة الإنسان في الحياة وعبث الموت بالنفوس والعباد،ومن خلال رثاء الميت تخليدا لذكراه يرثي الشاعر الإنسانية عامّة،فيرتقي النص إلى مستوى الكونية ،فيصور مأساة الإنسان وهو يتمزّق بين الرغبة في البقاء والرهبة من الموت ،بين أمل الخلود وحتمية الفناء،فلا سبيل إلى الهروب من الهلاك،حتى ولو تزود الإنسان بالمال الكثير وبالأهل وغيره،ولهذا اتّخذ الزّهاد من هذه القضايا مادة لأعمالهم الفنية،أما عن ظهور هذه الحركة في العصر العباسي، فقد يكون بسبب انتشار تيار المجون واللهو والإقبال على الحياة من جهة فظهرت هذه الحركة(الزهد)لتدعو بدورها إلى الابتعاد عن مطالب الحياة الزائلة والترغيب في العودة إلى حياة العبادة والإيمان، وما يلفت انتباه الباحث أن الزندقة والإلحاد قد شاعا في العصر العباسي في طبقة محدودة من الناس ،وكانت موجة المجون أكثر حدة ،نجد ذلك على لسان مُطيع بن إياس وهو شاعر خليع ماجن وزنديق،حيث يقول:

1. نعم لدينا نبيذٌ \*\*\* وعندنا حمّاد
2. ولهوُنا لذيذٌ \*\*\* لم يلهُهُ العبادُ
3. إن تشتهي فسادا \*\*\* فعِندنا فسادُ
4. أو تشتهي غُلاما \*\*\* فعِندنا زيادُ

أمّا عامة الشعب فلم تكن تعرف لا زندقة ولا مجونا ،بل كانت تعيش على الكفاف في بؤس وشقاء وضيق العيش،والأموال يلهو بها الأمراء والخلفاء والمُجان والشعراء والمغنّون ، وكان الشعب ساخطا على مظاهر الحياة العباسية عامة، وتجلّى ذلك أيام الفتنة التي جرت بين الأمين والمأمون، حين حوصرت بغداد واستطال شرّ المجان والمنحرفين ،فإذا جماعات كبيرة تطوّع للنكير عليهم والأخذ على أيديهم.

وكان تيار الزهد يدعو إلى التحقير من مباهج الحياة والتفكير في الموت ويوم الحساب والعقاب ،يوم لا ينفع مال ولا بنون ،فكثر الواعظون ،وازدهر الوعظ القصصي وتكامل ازدهاره في هذا العصر،فكانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوي وسلوك الصراط المستقيم الذي يؤدي بهم إلى نعيم الآخرة،وقد ظهر الكثير من النساك الذين عاشوا حياة الزهد خالصة، كلّها تبتل وعبادة وتقشف وانصراف عن كلّ نعيم انتظارا لما عند اللّه من النعيم نذكر منهم: سفيان الثوري (ت161ﻫ) وداود الأنطاكي (165 ﻫ) وسفيان بن عينية(189ﻫ) وكان يقول:"فكرك في رزق غد يكتب عليك خطيئة".

**3- شعراء الزهد والوعظ وخصائص شعرهم :**

إن من ينظر إلى غرض الزهد يجده يشترك مع غرض الشكوى والحكمة وتتداخل معانيهما أحيانا حتّى لا نستطيع الفصل بينهما ويقتربان من بعضهما البعض وبالخصوص حين يرسمان الطريق المثلى التي يجب إتباعها في الحياة وحين يتحدث فيها عن التجربة المعاشة فصاغوا كلّ تلك الأفكار التي تصبّ معظمها في قالب شعري واحد، ومن بينهم صالح بن عبد القدوس محمود الورّاق،أبو نواس ،وأبو العلاء،وأبو العتاهية،هذا الأخير،يحدّد صفات الدنيا بقوله:

حتوفها رصد وعيشها نكد \*\*\* ورغدها كمد ومُلكها دول

وهي أيضا : دار الفجائع والهموم ودا \*\*\* رُ البؤس والأحزان والشكوى

تبدو لنا صورة الدنيا من خلال هذه الأبيات سوداوية مظلمة، العيش فيها مليء بالهموم والمصائب، ولحظة السعادة تعقبها أحزان ومآس، والمرء فيها مهدّد في كلّ لحظة بمخاطر الموت والهلاك ، إنها دنيا القلق والاضطراب والتقلّب في الأحوال والتفكير المتواصل في الأزمات والنكبات.

ولو نظرنا في المعنى اللّغوي لكلمة "الدنيا" لاكتشفنا حقيقة معناها ،فهي الوضاعة والدّونية والنقص،على عكس الآخرة في التصور الديني فهي الرفعة والكمال والخلود ،ولذلك نرى الشاعر يُطنب في ذمّها وبيان مساوئها ،فالخير والشرّ فيها عادات وأهواء:

الخير والشرُّ عادات وأهواءُ \*\*\* وقد يكون من الأحبّاء أعداءُ

وإن أظهرت للإنسان الودّ سرعان ما تتحوّل ويكتشف خيانتها:

دارٌ بليت بحبّها \*\*\* خوّانة لمُحِبّها

ويعدّ أبو العتاهية في هذا الجانب من أشهر شعراء الزهد في الأدب العربي وشعره غزير البحر ، لطيف المعاني ،سهل الألفاظ ، كثير الافتتان ، قليل التكلّف وله الكثير من الأراجيز في الحكم والأمثال، وقال ثُمَامة بن أشرس،أنشدني أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال ِ نفسه \*\*\* تــملّكه المال الذي هــــو مالكه

ألا إنّما مالي الــذي أنـا مــــــــــنفق \*\*\* وليس لي المال الذي أنا تاركه

إن كن ذا مــــال فبــادر بــــــه الذي \*\*\* يحق وإلّا استـــهلكته مهـــالكه

وشعره في الزهد يمتاز بالسهولة والطبع والوضوح، ويعلّل أبو العتاهية نفسه بأنّ:" الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعرـ ولا طلّاب الغريب ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلّاب الغريبـ وهو مذهب أشغف الناس به الزّهاد وأصحاب الحديث والفقهاء والعامة ،وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه" أبو الفرج الأصفهاني :الأغاني 4/ص70.

وأبو العتاهية كان معروفا بسهولة الشعر،وبانّه أقدر الناس على النظم الفصيح وأرجوزته "ذات الأمثال" مشهورة وهي تجمع بين الحكمة والزهد،وشعره في هذا الجانب مشهور ،وقد جمعه النمري القرطبي (423ﻫ) وهو القائل:

1. رغيف خبز يابس \*\*\* تأكـــله فــــــي زاوية
2. وكـــوز ماء بارد \*\*\* تـــــشربه من صافية
3. وغــــرفة ضيّقة \*\*\* نفــسك فـــــيها خالية
4. أو مسجد بمعزل \*\*\* عن الورى في ناحية
5. تدرس فيه دفترا \*\*\* مســـــتندا بـِــسَارية
6. معتبرا بمن مضى \*\*\* من القـرون الخالية
7. خير من الساعات \*\*\* فـي القصور العالية
8. تـــــعقبها عقوبة \*\*\* تـصلى بنار حامية

و أوصاف الزهاد في هذه الأبيات لا تختلف عن أوصاف المُتصوفة ، من حيث المظهر والسلوك ،كتواضع الهيئة واعتزال الناس والاكتفاء بما يسدّ الرمق والإقبال على اللّه.

**الشــعر الصـــوفي:**

سئل سمنون المحب (ت قبل 297 ﻫ) عن التصوّف فقال :"أن لا تملكَ شيئا ولا يملِكُك شيءٌ" بمعنى إيثار الآخرة على الدنيا،فالتصوف استنفار للمريد ألّا يجعل نفسَه عبدا أو مملوكا أو مستندا إلى أيّ شيء سوى اللّه، أي؛ يحرّر نفسه من الأغيارِ.

يقول أبو الحسن النوري (ت295ﻫ) :" الصوفية قومٌ صفت قلوبهم من الكدُورات البشرية وآفات النفوس وتحرّروا من شهواتهم حتّى صاروا في الصفّ الأوّل،والدرجة العليا مع الحقّ ،فلما تركوا ما سِوى الحقّ صاروا لا مالكين ولا مملوكين".

فالصوفية حسب هذا التعريف هم من تطهّرت أجسادهم و نفوسهم ، وتطهير الجسد من آفات البشرية يكون بإبعاده عن النوازع البشرية التي تعُوق النفس الحالة به عن الانطلاق إلى الحقّ، وكذلك للنفس آفات ،فليست النفس بمعزل ٍ عن المرض ما دامت متعلّقة بالجسم.

**مظاهر الحبّ الإلهي عند المتصوفة:**

إنّ السلوك الصوفي هو في أحد جوانبه حالة إلزام عملي تفرض فيها على الذات تملّصها من إنّيتها،ممّا ينتج عنها علاقة ضدّية على شكل ثنائية ، التخلّي والتجلّي ، الانفصال والاتصال ،لأن الذات تسعى إلى تدمير نفسها (التخلّي) من أجل الحصول على بدائل الذات الإلهية ( التجلّي) وهي علاقة يكشف فيها الصوفي ذاتا أخرى من طبيعة مغايرة لطبيعته فيجد صعوبة في التواصل معها لأنّها مطلقة ولا سبيل للتواصل معها أو التعبير عنها،يقول الحلّاج:

لي حبيب أزور في الخلوات \*\*\* حاضر غائب عــــن اللحظات

ما تراني أصغي إليه بسرّي \*\*\* كي أعـــي ما يقول من كلمات

كلمات من غير شكل ولا نقــ \*\*\* ط ولا مـثل نغـــمة الأصوات

فكأنّي مخاطب كنت إيـــــا \*\*\* هُ على خــاطري بـــذاتي لذاتي

حاضر غائب قريب بعــيد \*\*\* وهو لم تــحوه رســوم الصفات

هو أدنى من الضمير إلى الوهـ \*\*\* م وأخفى من لائح الخطرات

يبدو من خلال الأبيات صعوبة تواصل الصوفي مع الألوهية، فهذه الأخيرة لا تخضع لقوانين الإدراك الحسّي بل لها حضور كلّي وتجليّ في قلب الشاعر فيتشكل لديه وعي وتتحقق لديه معرفة بالألوهية دون وساطة الكلمات ، وقد ألغى الشاعر المسافة بينه وبين محبوبه ، واستخدم للتعبير عن ذلك لغة تجريدية فيها الكثير من الإيحاء والرمزية ،تتيح إمكانات ثرية للقاريء في إنشاء المعنى وتصوّره،وقد ذهب الحلاج بعيدا في مواضع أخرى ليورد اللّه في مسارات صورية مغرقة في الإطلاق ،وتجعله بمنزلة الحبيب بصور حسّية تذكّر بالحب الإنساني ، مثل قوله:

واللّه ما طلعت شمسٌ ولا غربت \*\*\* إلّا وحبّك َ مقرون ٌ بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قومٍ أحـــــــدّثهم \*\*\* إلّا وأنت حديثي بين جُلّاسي

ولا ذكرتك مـحزونا ولا فرحا \*\*\* إلّا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ \*\*\* إلّا رأيت خيالا منك في الكأس

ولو قدرتُ على الإتيانِ جئتكم \*\*\* سعيا على الوجه أو مشيا على الرّأسِ

ما لي وللنّاس كم يَلحونني سفها \*\*\* ديني لنفسي ،ودين الناس للنّاس.

ملاحظة هناك تكملة للمحاضرة.

المراجع: معجم لسان العرب لابن منظور.

معجم الصحاح للجوهري.

كتاب: شعر التجديد في القرن الثاني الهجري لحافظ الرقيق.

التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق لزكي مبارك